النتائج ـ لتفعل فعلها في الميزان، فتتغيّر عناصره ومقوماته وموزوناته وحالته، تغييراً يتكيّف فيه مع نتائج المؤتمر، دون أي تقويم مسبق لتلك النتائج.

بعد هذه الملاحظات والاعتبارات الخاصة بمنهجية الدراسة ننتقل، الآن، الى البحث في مراجع الميزان العسكري وطرائق قياسه. ومن المعروف ان الكتاب الذي يصدره سنوياً «المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ـ لندن» بعنوان: «الميزان العسكري» يعتبر المرجع الاكثر صدقية من المراجع المماثلة، والاكثر اعتماداً عليه لاستقاء المعلومات منه، وهي معلومات رقمية خالية من التفاعل والتعامل مع أية عوامل أخرى، وهي كثيرة ومتنوعة، وبعضها يندرج في قوائم التعداد والاحصاء، وبعضها الآخر ينبو عن تلك القوائم.

ومن الجدير بالذكر، أن معظم الدراسات العربية الخاصة بموازين القوى العسكرية تلجأ الى استخدام البيانات الصادرة عن المعهد البريطاني الدولي أو المماثلة لها. وهذا أمر لا اعتراض عليه في إطار ما تقدّمه الارقام من دلالات. ويفترض ان تجد هذه الدلالات موضعها المناسب في إطار دراسة شمولية لعوامل القوة وعناصرها ومقوماتها وظواهرها وبواطنها كافة، في الصعد المحلية والاقليمية والدولية كلها. واذا ما تمّ ذلك، فاننا نستطيع ان نفهم لماذا انتصرت قوات لم تبلغ، قط، في تنظيمها وتدريبها وتسليحها وملاكاتها مستوى القوات المعادية لها، بل كانت الفوارق شاسعة في جميع المجالات. وحتى لا نستطرد في سرد الامثلة على ذلك، نشير الى الثورة الجزائرية (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢) التي انتصرت على دولة عظمى هي فرنسا، والثورة الفيتنامية (١٩٥٤ ـ ١٩٧٥) التي انتصرت على أعظم قوة عسكرية ـ اقتصادية في العالم، هي الولايات المتحدة الاميركية، والثورة الافغانية (١٩٧٩ ـ ١٩٨٩) التي تصدّت للقوة العظمى الثانية في العالم، الاتحاد السوفياتي السابق، وانتفاضة الشعب الفلسطيني التي لا تزال تتصدى بأضعف سلاح عرفه التاريخ لأعتى قوة جبروت وطغيان هي الجيش الاسرائيلي (١٩٨٧ ـ ٠٠٠٠).

ثمة طريقتان معروفتان لتكوين الميزان العسكري وقياسه[٢]: الاولى، اسمها «المقارنات الثابتة»؛ وتتمّ فيه مقارنة قوتي الطرفين بأسلحتهما وملاكاتهما وتنظيماتهما وقياداتهما. وتفقد هذه الطريقة عوامل هامة عدة، منها: التدريب الفردي والجماعي بمختلف مستوياته، المستوى الحضاري للمقاتل، القدرة على القتال، التعاون والتفاعل بين صفوف الاسلحة والقوات، الامداد والتموين والتعويض (اللوجستية)، الروح المعنوية، بيئة القتال (جغرافية مسرح العمليات، الاحوال المناخية، الخ)، المذهب العسكري وأساليب القتال، القيادة السياسية للدولة، شبكة الاصدقاء والاعداء، وغيرها من العوامل الهامة. أمّا الطريقة الثانية فهي «المقارنات الديناميكية»؛ وهمّها الاول تجنّب العيوب التي ظهرت في الطريقة الاولى. وللطريقة الثانية أساليب متعدّدة، ينتسب معظمها الى واضعيها من العلماء. وهي تدرس حالات معيّنة في شروط وظروف وعوامل محدّدة. وتتشابه أساليب هذه الطريقة في أنها تعتمد المنهج العلمي في البحث والتقويم. وتنتهي، في أغلب الحالات، الى وضع نموذج رياضي عن المشكلة قيد البحث، يفصّل العوامل المختلفة ويوضّح شبكة التفاعلات فيما بينها، ولا تهمل هذه الطريقة العوامل النوعية التي لم تستطع الطريقة الأولى احتواءها، وتضع لها قيماً عددية، حتى ان «الروح المعنوية» تُقوَّم برقم يحدّد منزلتها في شبكة العوامل المشكّلة للميزان العسكري.

واذا كانت هاتان الطريقتان عامّتين في تركيب مكوّنات الميزان العسكري وتحليله وتقويمه، فثمة عامل قومي متميّز وخاص بالكفة العربية من الميزان. ذلك ان من العسير ان يُتهم باحث عربي